قراءة في التوجيه النحوي للقراءات القرآنية ومظاهره في تنويع التفسير القرآني

الأُستاذ المساعد الدكتور

محمد توفيق عبد المحسن

قسم اللغة العربية/ كلية الآداب / جامعة الأنبار

المقدمة:

الحمد لله المتفضل على عباده وأصلي وأسلم على المبعوث بالكمال وآله وبعد .

فالجملة في العربية تبنى بناءً معنوياً تجتمع فيه الألفاظ لأداء معنىً من المعاني ، والحركات الإعرابية خيطٌ يربط هذه الألفاظ ، فتجد حركة الكلمة تسوقها للتوافق مع ما قبلها ليتولد عن هذا التوافق الذي يَدْعُونه بالتبعية؛ معنىً يغاير المعنى المتولد عن التغاير في حركة الإعراب .

وكان من مظاهر هذه التبعية أنهم عطفوا على التوهم إشارة إلى المعنى فأتبعوا المعطوف حركة المعطوف عليه المُتَوَهَّمة . وفي حين أنكر عدد من النحاة ما يجري من تغيير في حركة الإعراب المتوهمة ، فَهم آخرون المغزى فردّوا عليهم اعتراضهم.قال السيوطي(٩١١هـ): "ظنّ ابن مالك أنّ المراد بالتوهم الغلط ، وليس كذلك كما نبّه عليه أبو حيّان(٧٤٥هـ) وابن هشام(٧٦١هـ) ، بل هو مقصد صواب ، والمراد أنهُ عَطفٌ على المعنى ،أي جوّز العربي في ذهنه ملاحظة ذلك المعنى في المعطوف عليه فعطف ملاحظاً له، لا أنّهُ غَلَط في ذلك" .[1]

ثم أنهم جوزوا الإتباع على المحل في جميع التوابع[2]، وأتبعوا على الخلاف والمخالفة في الإعراب. " لأن الإتباع عملية ذهنية تدخل في نظم الجملة وتأليفها...يتعلق فيها التابع بالمتبوع ويُقَيِّدهُ" [3] .

ومن هنا برزت الحاجة مُلِحَّة لتتبع عدد من النصوص القرآنية لبيان أثر هذه الظاهرة في تنويع أوجه الدلالة في القراءات القرآنية .أو أثر القراءات في تنويع أوجه الدلالة النحوية فكانت الوجهة كتب معاني القرآن وإعرابه، وكتب القراءات حججها ومشكلها وكتب التفسير بدءاً بالطبري وانتهاءً بابن عاشور وغير ذلك من كتب النحو وما استجد من دراسات في هذا الموضوع ،فكان ما اقتنصته في باب التوابع أمثلة معدودة عرضتها على ما تقدم من مصادر ومراجع أبحث فيها عن التوجيه للموقع الإعرابي لما اخترت من قراءات ،أبين فيها أثر هذا التوجيه في تنويع التفسير القرآني، فكانت الحجة لأبي علي الفارسي

(ت ٣٧٧هـ)، وكشف مكي ابن أبي طالب ومشكله (ت٤٣٧هـ) ، و محتسب ابن جني(ت٣٩٢هـ) وتبيان العكبري (ت ٦١٦هـ) سبيلي لتوضح حجة أو علة ، وقلّما وجدت توجيها تفسيرياً يخرج عن أسلوب القدامى في دراسة حديثة مثل أطروحة الدكتوراه (أثر الاحتمالات الإعرابية في توجيه المعنى) ،[٤] ورسالة الماجستير (اختلاف القراءات القرآنية وأثره في تنوع المعنى) ،[٥] فحملت عبء ذلك مستأنساً بتوجيهاتهم عسى أن أوفَق في التوسع في هذه الظاهرة .

إن تنوع القراءات القرآنية حكمة إلهية رائعة أتاحت للقارئ أن يؤدي النص القرآني بطريقة يحتمل النص معها وجوها كثيرة ، عملا بظواهر لهجية وصوتية نطقت بها القبائل العربية أتاحت للسامع فهما نابعا من التفكر في تناغم الألفاظ وتنوع الدلالات .

و روعة القرآن الكريم وإعجازه يكمنان في قدرة هذا الكلام الموحى على تحمل كمٍ كبير من الوجوه فالقرآن أُنزل على سبعة أحرف ، وكثير من أهل القرآن يرون أن المراد بالأحرف السبعة إنما هو تعدد وجوه القراءة تبعا للهجات ، وما منع النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً أن يقرأ بحرف كان قرأ بِهِ . وهكذا فَهِم الصحابة الكرام، فابن عباس يقول:(إن هذا القرآن حَمَّال وجوه) . وفي ذلك يقول ابن عاشور (ت ١٣٩٣) : " لا مانع من أن يكون مجيء ألفاظ القرآن على ما يحتمل تلك الوجوه مراداً لله تعالى ، ليقرأ القرّاء الوجوه فتكثر في ذلك المعاني ، فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات مجزّءاً عن آيتين فأكثر ، وهذا نظير التضمين ..." .[٦]

يقول صاحب مناهل العرفان " إنَ تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات وذلك ضرب من ضروب البلاغة يبتدئ من جمال هذا الإيجاز وينتهي إلى كمال الإعجاز،أضف إلى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله ،دلَّ على صدق من جاء به وهو رسول الله ،وأن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء و

تضاد ولا إلى تهافت وتخاذل، بل القرآن كلُّه على تنوع قراءاته يُصدِّق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم،وذلك من غير شك يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف،ومعنى هذا أن القرآن يُعجز إذا قرئ بهذه القراءة ويُعجز أيضاً إذا قرى بهذه القراءة الثانية وهلم جرا... ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه"[٧].

إن مظاهر التعدد والتنوع كثيرة غير محدودة منها ما يتعلق بتنوع اللفظ ودلالتهِ ومنها ما يتعلق بتنوع الصوت ودلالتهِ ومنها ما يتعلق بتنوع حركات الإعراب بين متابَعات ومخالفات وتوَهُّمات كلها تقود إلى نص معجزٍ يَعجز عن إتمام نظمهِ وإبداعهِ البشر.

وليس من الحكمة أن تحدَّد تلك القراءات أو يُفرض على المسلمين منها وجه أو قراءة وتترك الأخرى،فهذا مما لا يخدم هذا الكتاب المعجز.

وأمثلة الإتباع في الحركة الإعرابية بين التابع والمتبوع كثيرة ، وأثر ذلك الإتباع في تحديد المعنى وبيان المراد من آي القرآن الكريم وتنوع أوجه القراءات القرآنية جليّ واضح ، ثم إن التنوع بين التبعية وغير التبعية يقودنا إلى تنوع في البيان القرآني ومن مظاهر ذلك ما يأتي مما سقناه في بحثنا المتواضع هذا .

المبحث الأول

مظاهر التنوع بين الوصفية والخبرية

ترد اللفظة الواحدة في النص القرآني محتملة لأكثر من وجه ، فتؤدى بأكثر من حركة، وقد يكون هذا الأداء لطفاً من الألطاف الإلهية بأمة محمد صلى الله عليه وسلم وبلغتهم التي شرفها الله تعالى ، ومن مظاهر هذا اللطف ما نجده من تنوعٍ في القراءة في قوله تعالى :

((مَثَلُ الجنةِ التي وُعِدَ المتقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ وانهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعمهُ وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسل مصفّى)) (محمد /١٥).

قال ابن عاشور : " فأمّا إطلاق الأنهار على أنهار الماء فهو حقيقة ، وأمّا إطلاق الأنهار على ما هو من لبن وخمر وعسل فذلك على طريقة التشبيه البليغ ، أي مماثلة للأنهار ، فيجوز أن تكون المماثلة تامّة في أنهار كالأنهار متبحرة في أخاديد من أرض الجنة فإن أحوال الآخرة خارقة للعادة المعروفة في الدنيا "[٨] .وكونها أنهارا هو المدهش المتخيل غير المألوف ، ففي الدنيا لا توضع هذه الأشربة في الأنهار ، ولقد وجه القدامى تنوع القراءة في هذه الآية وما يتركه هذا التنوع من دلالات نحوية لكنهم اقتصدوا في بيان الدلالات التفسيرية وليس هذا المعنى بمشكلٍ بقدر ما تشكل وجوه القراءة في كلمة (لذة) ، فقد قُرِئت (لَذَّة) بالرفع والخفض ،وليس الأمر مقصورا على (لذة) إذ يبدو أن الصفات كلها مقصودة بالحركة محلا أو تقديرا في قراءة من قرأ بالخفض أو من قرأ بالرفع مع أن الفراء (٢٠٧) لم يشر إلا إلى لفظة (لذة) ، لأنها اللفظة التي ظهرت عليها الحركة ، ولأنه لا يبدو الأثر الصوتي للحركة إلا في (غير آسنٍ) و (لذةٍ).

و إذا توقفنا عند الأوصاف الواردة في الآية نجدها : غيرِ آسنٍ ، و لم يتغير طعمه ، و لذةٍ للشاربين ، و مصفًّى . فنكون في توسع كبير في

المعنى .

فأما من قرأ(لذةٌ) بالرفع فإنما أراد كونها نعتاً(للأنهار) ، ومن خفضها جعلها تابعة للخمر،[٩] أو يكون جَرّها لمجاورة الخمر وأبقاها تابعة للأنهار .

وهي بالخفض تعود على ما في الأنهار ، لا الأنهار نفسها ، ويلزم حينها أن تكون جميعها مكسورة ؛ فهي صفات للماء واللبن والخمر والعسل ، لا صفات للأنهار،والصفات كلها مكسورة ، ولابدَّ حينها من تحقق إتباع الكسر لفظاً أو محلاً ، وهذا إخبار بأن الجنة فيها أنهار تتنوع فيها المشروبات لكن خواص هذه المشروبات لا تشبه خواص مشروبات الدنيا التي يصيبها الفساد وتغير الطعم .

وإليك التفصيل ف (لذة) بالكسر صفة للخمر ، لأنه شرابٌ موهمٌ باللَّذة في الدنيا وحسبهُ أن يكون كذلك في الآخرة لكن بلا إسكار ،قال تعالى: (بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) الصافات/٤٦ــ٤٧ ، وقال: (لا يصّدعون عنها ولا ينزفون) الواقعة /١٩ ، و لأن اللذة صفة يستشعرها الشارب وليست صفة للمشروب متحققة فيه ،فالرأي والله أعلم أنّه تعالى وصف الخمر بصفة شاربيه في حين وصف المشروبات الأخرى بصفاتها . يقول الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) : " لذة للشاربين بأسرهم ، ولأن الخمر كريهة الطعم فقال (لذة)أي لا يكون في خمر الآخرة كراهة الطعم "[١٠] و هو الذي نبه إليه ابن كثير بقوله : " أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا" [١١] ، والناس يلتذ بعضهم بما لا يلتذ به غيرهم في الدنيا .فنبه على اللذة" لزيادة التشويق إلى نعيم الآخرة "[١٢] أمّا الصفات الأخرى فتنطبق على موصوفاتها ، وتتبعها وإن لم تظهر الحركة عليها ، فالماء غير آسِن ، واللبن لم يتغيَّر طعمهُ، والعسل مُصَفًّى .

أما الرفع في (لذةٌ) فهو إشارةٌ إلى رفع الصفة تبعاً لرفع الموصوف، والموصوف(أنهارٌ) ، أي أنهارٌ من ماء غيرُ آسنٍ ماؤها ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعم لبنها ، وأنهارٌ من خمر لذةٍ للشاربين خمرها ، وأنهارٌ من عسل

مُصفًّى عسلها ، ويصدق حينئذٍ كون المشروبات أنهاراً ، وتكون من للدلالة على الجنس أي جنسها من ماء ولبن وخمر وعسل ، وللإمام الطبري (ت٣١١هـ) رأي في هذا فهو يقول : " ولو جاءت رفعاً على النعت للأنهار جاز ،... فأمّا القراءة فلا أستجيزها فيها إلا خفضاً لإجماع الحجة من القرّاء عليها " [١٣].

وقد يكون في الرفع إتباع الصفات للصفة (لذة) في تبعيتها للأنهار فهي تعود جملة وتفصيلاً على الأنهار على أنها جملة خبرية للمبتدأ (أنهار) في جملة مركبة أفادت الوصفية والخبرية .

أو نقَصر الرفع على (لذة) و يعني والله تعالى أعلم ؛ كون أنهار الخمر بما يجري فيها لذة للشاربين ، و " مَرأى الأنهار من هذه الأصناف مرأى مبهج "على ما ذكره الآلوسي(ت ١٢٧٠هـ)، [١٤] إي عندما يرونها يستشعرون اللذة ؛ لذةَ النظر، والفكر، والتأمل، والذوق ،والرِّي ،والنشوة ، ثم السكر الذي يحبون . " بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل " [١٥] كما يقول ابن كثير (ت٧٧٤هـ)، وليس حمل النعت على وعاء المنعوت بغريب ، ففي سورة الصافَّات(٤٥-٤٦) وصف الكأس وما فيها وجاء بالنعت مجروراً تبعاً للمنعوت قال تعالى : ((يُطاف عليهم بكأسٍ من معين . بيضاءَ لذةٍ للشاربين)) .

وتفصيل الكلام إن صرفنا الوصف إلى الجميع يظهر غرض الرفع ، والمراد منهُ – والله اعلم – وكما يأتي:

إنَّ أنهارَ الجنة غير آسن ماؤها ،فالكلام على الماء الذي تحويه ،والكلام أيضا عليها لأنها لها خاصية الحفاظ على الماء بلا أسن ، لذا نكَّر الأنهار . وغير هنا قد تدل على دوام ما أستُثني على التأبيد وهو معنى لطيف يضاف إلى معانيها والله أعلم، وصيغة اسم الفاعل(آسن)دليل ذلك ، والمضارع المنفي بلم يستغرق الماضي والمستقبل ، وليس مثله أن يكون ماء الأنهار غير آسن ،فيكون الكلام على الماء ، لأن الأنهار عُرّفَت في حين خصص الماء بالإضافة فالمكان غير مقصود.

ومثلها في الدلالة: إن أنهار الجنة لم يتغير طعم لبنها ، ولن يتغير ما

دام لم يتغير .

و أنهار الجنة لذةٌ للشاربين خمرُها كلما شربوا ، لأن الخمر في الوعاء المفتوح يتلف ويفسد ولا بد أن يغلق وعاؤه فيحفظ النكهة والطعم والغاز والمركبات الأخرى، وكل ذلك يفسد مع الضوء والهواء ، وهذه مزية أنهار الخمر في الجنة، وفضلها أنها تبقى لذيذة في كل وقت.

و أنهار الجنة مُصَفًّى عسلها من العكرة لونه رائق على الرغم من الجريان، والجريان قد يكدّره لكنه لا يتكدر .

إذن قراءة الرفع تتكلم على الأنهار التي لا تُفسد ما فيها مما يَفسَد في الدنيا فالغرابة أكبر والدلالة أوفر، فصار عندنا أمران في الجنة التي وُعِدَ المتقون أولهما ؛ فيها أنهار تحوي ما لا تحويه أنهار الدنيا ، والآخر :أن الأنهار هذه فيها سمة خاصة هي الحفاظ على خواص ما تحويه ،وعليه تكون قراءة الرفع أوسع من قراءة الخفض ؛ لأن قراءة الخفض أشارت إلى صفات المشروبات أو صفات الخمر ، أما الأخرى وهي قراءة الرفع فجمعت بين صفات الوعاء وما وعى وشملت الأنهار وما فيها . والإتباع هنا جاء استجابةً لتأثير حركة الصوت المنطوق في العقل البشري،فالذي يصرف الوصف إلى الموصوف هو الحركة .

من هنا يترجح أن يكون العامل في النعت معنويا خلافاً للمبرد(٢٨٥هـ) الذي ذهب إلى أن العامل في النعت هو العامل في المنعوت [١٦]، وهو الظاهر من مذهب سيبويه (ت١٨٠هـ)[١٧]، وابن السراج (٣١٦هـ) [١٨]، وغيرهم من النحاة [١٩]. يبحثون عن أثر اللفظ في اللفظ ، في حين أنَّ إتباع الصفة لموصوفها دليل اتفاق الدلالة مع الوظيفية لأنه قد تُقطع الصفة عن موصوفها في الإعراب فيراد بها حينئذ معنىً آخر ، كأن يكون مدحاً أو ذماً أو إخباراً أو غير ذلك، فيكون العامل في النعت معنوياً أكثر منهُ صوتياً[٢٠].

المبحث الثاني

مظاهر التنوع بين البدلية والخبرية

وفي مثال آخر نخرج من دلالة واحدة إلى دلالتين حيث تتنوع الحالة في قوله تعالى:((رحمةً من ربّك إنه هو السميعُ العليم ربِّ السموات والأرض وما بينهما إنْ كنتم موقنين)) سورة الدخان/٧ .

وفي سورة المزمل/٨-٩ :((واذكُر اسمَ رَبِّكَ وتَبَتَّل إليه تَبتيلاً .ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً)) .

وفي سورة النبأ /٣٦-٣٧ : ((جزاءً من ربّكَ عطاءً حساباً. ربِّ السموات والأرض وما بينهما الرحمنِ لا يملكون منهُ خطاباً)) .

ذكر ابن مجاهد(ت٣٢٤هـ) : أنّ (ربّ) قُرِئ بالرفع في آية الدخان وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وقرأ الباقون بالجر ، و أنّ طائفة من السبعة قرأت (ربّ السموات) في المزمل /٩ وفي النبأ/٣٧، بالخفض فيهما وقرأتهما طائفة أخرى بالرفع ، .[٢١] وذكر ابن خالويه (٣٧٠هـ) أن (ربّ) يُقرأ بالرفع والخفض في المواضع كلها ٢٢.

ونقل مكي ابن أبي طالب (٤٣٧هـ) : أنَّ الجر في الأولى قراءة الكوفيين وابن عامر ورفعه الباقون[٢٣].ومن غير السبعة نقل الفراء(٢٠٧هـ)عن الحسن والأعمش وأصحابه بخفض(رَبِّ)من قوله تعالى:(رب السموات والأرض)في الدخان /٧ ، ووَجّهها على أنها نعت لـ (ربك)[٢٤].

وعلل ابن خالويه للقراءات فقال : " فالحجة لمن خفض : أنهُ جعله بدلاً من الاسم الذي قبله ، والحجة لمن رفع أنَّه جعله مبتدأ ، أو خبرا لمبتدأ ، أو أبْدَلَه من قوله : (هو السميعُ العليمُ،رَبُّ ...))[٢٥]. قال النحاس (ت ٣٣٧ هـ) : " و الخفض على قراءة حفص يكون على البدل (من ربّك) "[٢٦]، وقيل : قرئ بالرفع على الصفة لـ (السميع) [٢٧]، أو على الخبر لمبتدأ مضمر على معنى (هو رب السموات والأرض)[٢٨]، وهو الذي اختاره مكي ابن أبي طالب

(ت ٤٣٧هـ) لأن فيه معنى التأكيد ، وزاد احتمالاً آخر على الرفع وهو الرفع على الابتداء ويكون الخبر (لا إله إلا هو)في آية سورة الدخان [٢٩]، فهي وجوه متعددة نعرضها فيما يأتي :

الوجه الأول: الخفض على أنه بدلٌ من الاسم الذي قبله في الآيات الثلاث كما تقدم فهو : (ربِّكَ...ربِّ السموات...) ، أي:ربّك هو ربّ السموات والأرض، و(ربِّك ...ربِّ المشرق والمغرب) أي هو رب المشرق والمغرب ،فالبدل تبع المبدل منه ، وهو عوض عنه .

وكونه بدلاً من الاسم قبله قد يكون – والله أعلم – لبيان أنَّ الربَّ السميع العليم،هو الربّ المعهود الواحد الأحد رب السموات والأرض وما بينهما، ففيه إثباتٌ لوحدانية الإله ، وأن ربّ كل إنسان هو رب السموات والأرض لا غير، وهو رب المشرق والمغرب ، وهو رب الكل فإبدال(ربّ)الثانية من الأولى إشارة إلى أن الرب واحد . فتكون البَدَلية دالة على تثبيتٌ حقائق اعتقادية ، لذا نجده تعالى يُتبعها بقوله :(إن كنتم موقنين)، و (فاتخذه وكيلا) ، و(لا يملكون منه خطابا) ، فإبدال رب الإنسان بربّ السماوات والأرض وما بينهما، أو إبداله برب المشرق والمغرب إظهار للتمكن والقدرة في مقابل عجز الإنسان .

وقد قال النحاة في البدل : " هو التابع المقصود بالنسبة بلا واسطة " [٣٠]. يُشرِك المُبْدَل مع المبدَل منهُ في الجر والنصب والرفع [٣١]، ويقول المبرد (ت ٢٨٥هـ):" اعلم أنَّ البدل في جميع العربية يحل مَحل المُبَدل منهُ " [٣٢].

واستعمال أسلوب البدل كان لحكمة وغاية ، فلو كان الخطاب في سورة الدخان : {رحمةً من رب السموات والأرض وما بينهما } ،وفي سورة النبأ : (جزاءً من رب السموات والأرض وما بينهما) ، وفي سورة المزمل {واذكر اسم رب المشرق والمغرب } لكان المعنى صحيحا ، لكن قد لا يكون هو المرادَ، ولا هو المُعَبِّرَ عن حقيقة الموقف الذي سيقت لأجله الآيات ، والله أعلم بالصواب ؛ ولأن النبي ﷺ آمنَ بربهِ في حين أشرك بهِ آخرون غيره فكان يراهُ ربَّهُ ، خاطبه القرآن بأسلوبٍ يتوافق مع تفكيره ، وهذا هو تصور الأنبياء، وهذا

هو فهم البشر ، وهكذا تعامل القرآن مع هذه المفاهيم فنقل عن آدم عليه السلام قوله : ((فتلقى آدمُ من ربه كلمات))البقرة/٣٧، وقال عن إبراهيم عليه السلام((وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتَمَّهُنَّ))البقرة /١٢٤، وإبراهيم عليه السلام ، كان يقول: (هذا ربي)، قال تعالى:((فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي)) الأنعام/ ٧٧. وقال تعالى : ((إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت)) البقرة/٢٥٨ .

وهذا هو تصور الناس أيضا ، ففي البقرة/١٣٣:((قالوا نعبدُ إلَهَكَ وإلهَ أبائكَ إبراهيم وإسماعيل واسحق)). وصرَّح بنسبة الإله إلى عابده فقال : ((أفرأيْتَ مَن اتَّخَذَ إلهَهُ هَواهُ)) الجاثية/٢٣. فهم ينسبون المعبود إلى العابد ،ويختَصُّونه به ،وكل يريد أن تكون الرحمة من ربه والجزاء من ربه والذكر مختص بربه ولا يعنيه أن يكون هو رب السموات والأرض وما بينهما أو رب المشرق والمغرب فهو آمن به على أنه ربه ليغير النظرة القديمة الى نظرة جديدة مبنية على الشمول وليس الإختصاص كما كان في الجاهلية لكل عابد معبود فمع الإسلام لكل العابدين معبود واحد ، فأراد أن يثبت حقيقة أن رب الأنبياء هو رب العالمين رب السموات والأرض وما بينهما وهو رب المشرق و المغرب ، فاستعمل البدل والمبدل منهُ ، وانتقل من الخصوص إلى العموم .

وفي حين قَدَّم الرحمة في سورة الدخان نكرةً مخصوصة من ربٍّ مخصوص وصفهُ بالسمع والعلم ، فإنهُ أخرَّ الرحمة في سورة النبأ / ٣٧ وصفاً للرب فقال:

(جزاءً منْ رَبِّك عطاءً حساباً ربِّ السموات والأرض وما بينهما الرحمنِ)).فهل تَتْبَعُ (الرحمن) موصوفها في الحركة أو هي مستأنفة مرفوعة على الابتداء؟

ذكر مكي(٤٣٧هـ) : أنّ عاصماً وابن عامر قرأا بخفض (الرحمن) ورفَعَه الباقون ، وذكر أن حُجّة من خفض أنهُ أتبعَ الاسمين المخفوضَ قبلهما وهو قولك:(من ربِّك)على البدل . [٢٣] وسياقه (جزاءً من ربك ...ربِّ السموات ...الرحمنِ ...) وفي الكسر على البدلية إشارة إلى التسمية ؛ أي ربك هو

الموصوف رب السموات والأرض هو اسمهُ(الرحمن)وفي هذا تعريف به وإخبار. وفيه إشارة أيضا إلى أن ربك المُجازي هو رحمن السموات والأرض ولا رحمن غيره فاختص الوصف بالمعبود لا كما يصنع المشركون الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم حين كتب كاتبه بسم الله الرحمن الرحيم في صلح الحديبية فقالوا : اكتب بسم الله أما الرحمن فلا نعرفه وفي هذه الآية تثبيت بالبدلية للرحمن .

ومن وجه آخر ولأنّ البدل يتبع المبدل منه متأثرا بعامله فقد يكون المراد والله أعلم : أنّ جزاءَ ربك ، هو جزاءُ رب السموات والأرض وما بينهما ، هو جزاءُ الرحمن الذي لا يخشى ، فهو الرحمن الرحيم وهو العدل في حكمه وجزائه ، كيف لا وهو يتكلم على المتقين في هذا الموضع ، وقد أعد لهم حدائق وأعنابا وكواعب أترابا .فالبدلية هنا في استبدال المُجازي لبيان حاله عند الجزاء أو لبيان حال الجزاء ، فهو جزاء الرحمن ، لا جزاء المثيب على فعل العبد ..

أمّا رفعها فهو على استئناف كلام جديد وهو ما نبينه في الوجه الثالث إن شاء الله .

الوجه الثاني:أن تكون(ربّ) في الآيات الثلاث المتقدمة و (الرحمن) في آية سورة النبأ نعوتا لا أبدالا ، وهي على الوجهين تُعرَب تبعاً لـــ (ربّك) لأن البدل والنعت لا يحتاجان عاملاً ، فهما يتبعان المعمول في التأثر بعامله .أما الخفض على أنهُ نعت ل(ربك) فيعني أنّ ربّك منعوت بأنهُ رب السموات والأرض ، وأنه منعوت بأنه رب المشرق والمغرب ، والنعت يتبع المنعوت. " وإنما صار النعت تابعاً للمنعوت في إعرابهِ لأنهما شيء واحد فصار ما يلحق الاسم يلحق بنعته"[٣٤] .فالرحمة رحمة رب السموات والأرض ، والذكر والتبتل يستحقه رب المشرق والمغرب ، والجزاء جزاء رب السموات والأرض . وليس التأثير للإعراب فحسب فأكثر ما يكون التأثير في النعت إنما هو للمعنى[٣٥].وهم لشدة تأثر المعاني بالحركات لم يكتفوا بإتباع النعت لحركة المنعوت المعرب الظاهرة ، بل ذهبوا إلى إتباع النعت لحركة المنعوت تبعاً للمحل وليس تبعاً للفظ [٣٦]

كقولهم:(ما جاءني من أحدٍ عاقلٌ) ، قال المبرد(٢٨٥هـ): " رفعت العاقلَ ، ولو خفضتهُ كان أحسن ، وإنما جاز الرفع لأن المعنى:ما جاءني أحدٌ))[٣٧].

وكون (ربّ) نعتاً في سورة الدخان في قوله تعالى:((رحمةً من ربّك إنه هو السميعُ العليم ربِّ السموات والأرض وما بينهما إنْ كنتم موقنين)) الدخان/٧ . بيّن واضح لأن فيه دلالة على الرعاية والتربية فمن نعوت كماله تعالى أنهُ رب السموات والأرض وما بينهما ، أي الراعي المدبِّر لمصالحهم جميعاً لذا أكدّ على صفات الكمال الأخرى التي يحتاجها المربي والمُدَبِّر وهي السمع والعلم ، فقال: (إنه هو السميع العليم) . لأن(السميع العليم) صفتا كمال ومبالغة للرب ومن يتصف بهما يملك السموات والأرض ويكون رباً لهما ، فهي من نعوت القدرة ،أي : ربك السميع العليم منعوت بأنه رب السموات والأرض ، ويصحب نعت الرب مدحٌ للعبد في أنه أحسن اختيار الرب ، في أنه اختار رب السموات ولأرض ، ثم أنه أحسن في اختيار من يخشع في عبادته ويتبتل إليه فهو رب المشرق والمغرب ، وأحسن اختيار المجازي . فهذه نعوت ضمنية للعابد .

وكذا في سورة المزمل/٨-٩ :((واذكُر اسمَ ربِّكَ وتَبَتَّل إليه تَبتيلاً .ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً) في قراءة الجر(ربِّ) من يستحق العبادة والذكر والتودد يتصف بالسيطرة على الجهات، ومن يدبر أمر العباد يحيط بمواطنهم ، فهو منعوت بأنهُ رب المشارق والمغارب.

وفي سورة النبأ /٣٦-٣٧ :((جزاءً من ربّكَ عطاءً حساباً. ربِّ السموات والأرض وما بينهما الرحمنِ لا يملكون منهُ خطاباً))من يجازي ويحاسب يتصف بالقدرة والملك جزاءً وعطاءً وحسابا من الربّ المتمكن المنعوت بأنهُ رب السموات والأرض وما بينهما.

ووجه النعت هنا أنهُ جاء لبيان حقائق تربوية اجتماعية ، فَبَيَّنَ صفات الباري عز وجل مع عباده.

الوجه الثالث : رفع (ربّ) على الابتداء على استئناف كلامٍ جديد تتسع

فيه الدلالة ففي قوله تعالى : ((رحمةً من ربّك إنه هو السميعُ العليم . ربِّ السموات والأرض وما بينهما إنْ كنتم موقنين)) الدخان/٧ ، في قراءة الرفع يكون (ربُّ) مبتدءاً خبره في الآية التي تليها وهي قوله تعالى : ((لا إله إلا هو يحيي ويميت ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين)) / ٨ ، فقوله : (لا إله إلا هو) ، و (يحيي ويميت) ، و (ربكم ورب آبائكم الأولين) كلها أخبار ، فالأول إخبار بالوحدانية ، و الثاني إخبار عن قدرته في الإحياء والإماتة بعد أن تكلَّم على السماء يوم تأتي بدخان مبين يغشى الناس ، و الثالث إخبار عن قِدَمه تعالى فهو ربكم ورب آبائكم الأولين .

ولأنّ ربّ في مطلع آيةٍ مستقلة ، ولأنه التفت في الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى منكري الوحدانية فيها ، فالاستئناف حاصل لفظاً ومعنىً ويكون قد انتقل من توصيف إله النبي الذي آمن به إلى توصيف الإله الذي يدعوهم إلى الإيمان به ، فهما التفات واستئناف ليثبت حكما آخر على العبد فبما أن العبد اختار الرب فقد وجب عليه التكليف فالتفت عن الوصف إلى التكليف ، كذلك نجد في رفع ربّ الأولى انسجاما مع رفع الباء من (ربُّكم) و (ربُّ آبائكم)لتتفق الألفاظ الثلاثة في حركة موحدة تدلل على مدلول واحد .

أما في سورة (المُزَّمِّل)آية /٩ ، وهي قوله تعالى : ((واذكر اسمَ ربِّك وتبتل إليه تبتيلاً ربُّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا)) فيكون خبر المبتدأ هو (لا إله إلا هو) ، فهو إخبار بأن رب المشرق والمغرب واحد أحد ،فليس إله المشرق مغايرا لإله المغرب ، وعلى هذا التقدير يلزم والله أعلم الفصل بين الجملة الفعلية و الجملة الاسمية ، فهو هنا يتكلم على صفة الرب الذي يذكر اسمه ويتبتل إليه، ثم الرب الذي يصلح اتخاذه وكيلا، وكأن الكلام في الثانية مستأنف عن سابقه ، لأنه لو جرّ (رب المشرق) لكانَ يتكلم على صفات الرب الذي نعبده ونتقرب إليه ، أمّا وهو يرفع فهو يتكلم على رب المشرق والمغرب . وهل من فرق يلحظ ؟ نعم . إنّ ذكر الربّ والتبتل إليه والانقطاع لعبادته يكون بين العبد وربه الذي يستشعره معه قريبا منه ، أما

الربّ الذي يتخذه وكيلا يتقوّى به فيصبر على ما يقولون ، فهو الربّ المحيط بالمشرق والمغرب ، فناسب كل حال سياقها ، وليس يمتنع ذلك اعتقادا فهو العزيز العليم في موضع ، وهو العزيز الحكيم في آخر اختلف التوصيف باختلاف الحال وبقي الربُّ واحدا .

وفي سورة (النبأ) /٣١ -٣٧ ، في قوله تعالى : ((إنَّ للمتقين مَفــازا . حدائق وأَعنابا .وكواعب أترابا . وكأساً دِهاقا . لا يسمعون فيها لغواً ولا كِـذّاباً . جزاءً من ربّك عطاءً حسابا . ربِّ السموات والأرض وما بينهمــا الــرحمنِ لا يملكون منهُ خطابا)) الاستئناف على الابتداء برفع (ربّ) يجعـل (الــرحمن) صفة لربّ السموات والأرض ،فتقرأ : (ربُّ السموات... الرحمنُ لا يملكون منه خطابا) وهذا الرحمن لا يملكون منه خطابا ، المتقون كلهم لا يملكــون منــه خطابا وهو الرحمن ، فالخبر الجملة الفعلية .

وفي (الرحمن) قراءة أخرى وتوجيه آخر يقول الإمام الشوكاني(ت ١٢٥٠ هـ): " ورفع الثاني(الرحمن) على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هــو الــرحمن واختار هذه القراءة أبو عبيدة (ت ٢١٥هـ) وقال هذه القراءة أعدلها فخفض ربّ لقربه من ربك ، فيكون نعتا له ورفع الرحمن لبعده منه علــى الاســتئناف وخبره : لا يملكون منه خطابا ، أي لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيــه وقال الكسائي(ت١٨٩هـ) : لا يملكون منه خطابا بالــشفاعة إلا بإذنــه وقيــل، الخطاب الكلام ، أي لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه إلا بإذنه " [٣٨] وفــي هذا تهويل للأمر وتخويف من الموقف الذي سيَقِفه الناس يوم القيامة ، ويكون أفاد أمرين :

الأول : والله أعلم هو أنّ الجزاء يكون من الرب لكل الموجودات (جزاءً من ربّك عطاءً حسابا ربِّ السموات والأرض وما بينهما الرحمنُ). على قطع الحركة والانتقال من أدنى انخفاض إلى أعلى ارتفاع بترك الكسر إلى الرفع وترك التبعية إلى الرفعة والاستقلال ليكون التأكيد فيه ألزم فهو إخبار بجملة اسمية ، لنقل الحال من الخوف والحساب إلى الرحمة .

والآخر: أنّ الرحمة للجميع ، لكنه حذر من أنهُ لا وَساطة بين الله ومخلوقاته ، فالرحمن المتصف بالرحمة لا يملكون منهُ خطابا ، فعليهم أن لا يحاولوا ، ثم أنَّ النهي دلّ على عدم السماح للمخلوقات بمخاطبة رب العزة ، فهو مع تحقق رحمته لا يسهل خطابهُ لأنه ممتنع. أي فليحذروا الرحمن الذي يملك السموات والأرض وما بينهما ، وهنا يكون الرحمن مرفوعا على الابتداء جملة ابتدائية استئنافيّة .

وهو تعالى كما تقدم، إن تكلم على خصوصيات العبد مع ربّه وهو وعده له بالجنة وترغيبه بملذاتها قال(ربّك) ، وإن تكلم على الشمول والقدرة وهو البعث والقيامة قال :(رب السماوات والأرض) ،فهو تعالى يعدل من ضمير المخاطب المفرد إلى النكرة المضافة ، أمّا الحركة فقطعها يوحي بقطع المشهد ، والانتقال عنها يوحي بالانتقال عن المشهد .

وقد يكون (الرحمن)بدلا من (رب السموات والأرض...) والخبر جملة (لا يملكون منه خطابا) وفي هذا إخبار عن رب السموات والأرض وما بينهما، فيكون عجزهم عن خطابه صفة استحقاق له لامتناعه وهيمنته في التصرف بملكوته.

والوجه الرابع : الرفع على أنهُ خَبرٌ لمبتدأ مضمر تقديره (هو) [٣٩]، في كل من قوله تعالى:((رحمةً من ربّك إنه هو السميعُ العليم ربِّ السموات والأرض وما بينهما إنْ كنتم موقنين)) الدخان/٧ وفي سورة المزمل/٨-٩ :((واذكُر اسمَ ربِّكَ وتَبَتَّل إليه تَبتيلاً .ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً) وفي (النبأ /٣٦-٣٧):((جزاءً من ربّكَ عطاءً حساباً. ربِّ السموات والأرض وما بينهما الرحمنِ لا يملكون منهُ خطاباً)).أي: ربّك هو ربُّ السموات والأرض وما بينهما ، وهو ربُّ المشرق والمغرب.[٤٠] وهذا نوع من دلالات القصر لأن استعمال الضمير البارز مبتدأ فيه دلالة على القصر ، قصر ربوبية السموات والأرض وما بينهما عليه ، وقصر ربوبية المشرق والمغرب عليه ،وهو اختيار مكي بن أبي طالب .[٤١]

ففي سورة الدخان يكون التقدير : رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ، فإن شككت في قدرته فاعلم أنه هو رب السموات والأرض وما بينهما .

وفي (المزمل) : واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . وإن غاب عنك استحقاقهُ في أن يذكر ويُتقرّب إليه فاعلم إنهُ هو رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو مرجع الأمور كلها إليه .

وفي(النبأ) : جزاءً من ربك عطاءً حسابا ،فإن شككت في قدرته على مُجازاتك بما مرَّ فاعلم أنهُ هو ربّ السموات والأرض وما بينهما يعجز الخلق عن خطابه .

فإن صحَّتْ هذه التوجيهات فالسياق سياق تثبيت القدرة ، فهو الراحم وهو المعبود وهو المحاسِب .

الوجه الخامس : أن يُرفع على أنه نعت لـ (السميع) [٤٢] ، في قوله تعالى: ((رحمةً من ربّك إنه هو السميعُ العليم . ربِّ السموات والأرض وما بينهما إنْ كنتم موقنين)) الدخان/٧

فتكون الربوبية صفة لـ (السميع) فيتضح الفرق في ذلك بينه وبين كون السمع صفة (للرب) ، ففي الأولى تغليب للسمع وتقديم له فالكمال في الصفات سابقٌ للتدبير والربوبية ، وهذا هو الاختصاص العظيم في الصفة وقصرها على الموصوف ، فلا سميع غيره ،لأن غيره سامع ومستمع ولا يجوز بأي وجه من الوجوه أن يوصف غير الله تعالى بـ السميع ، وفي الثانية وهي جعل السمع صفة للرب تغليب للتدبير والربوبية على السمع وهي منزلة دون الأولى ، والله تعالى أعلم .

والوجه السادس : أن يُرْفَع (ربّ)على أنه بدلٌ من(السميع العليم) وهذا مقصور على آية سورة الدخان : ((رحمةً من ربّك إنه هو السميعُ العليم ربِّ السموات والأرض وما بينهما إنْ كنتم موقنين)) الدخان/٧ ، والإبدال هنا غير الإبدال المتقدم من(ربك) ، فإبدال الرب من الرب كما تقدم توحيد . أما إبدال الرب من (السميع العليم) المؤكد بـ إنّ و الضمير ففيه مغزى آخر،وعند الله

علم الصواب ، فهو هنا صرفٌ لجهة الكلام عن الإخبار بماهية الرب وصفاته ، إلى التأكيد على أن المبالغة في الصفات تستدعي المبالغة في القدرة فلا يمكن أن يكون سميعاً وعليماً ويكون ربّ فردٍ واحد ، فالسميع العليم ليس ربك وحدك إنما هو ربّ السموات والأرض وما بينهما . ، والله أعلم . وهو أيضاً يدعو إلى تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يتأثر بتقولات الكافرين المشككين بنزول القرآن الكريم ، فلا تبتئس بما يقولون فالذي يسمع ما يقولون هو رب السموات والأرض وما بينهما والذي يعلم ما يمكرون هو رب السموات والأرض وما بينهما.

وليس غريبا مجيء (ربّ) نعتاً للصفة في الوجه الخامس ثم مجيئه بدلاً منه في الوجه السادس ، فالنعت والبدل متداخلان ، وهي فكرةٌ قدّم لها الدكتور مهدي المخزومي بقوله : " إن أكثر أنواع البدل ليست بدلاً،أو هي بَدَلٌ يؤدي وظيفةً كلاميةً أخرى كالنعت والتوكيد وعطف البيان " [٤٣].

وسيبويه والخليل (ت١٧٥هـ) لم يفرقا بين عطف البيان وبين النعت ، ولا بينهما وبين البدل [٤٤] ، وكثير من النحاة عدّ البدل مشبهاً بالنعت [٤٥]. ففي قوله تعالى : (يُوقد من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ)النور/٣٥ ، وقوله تعالى : ((يُسقى من ماءٍ صديد))إبراهيم /١٦ ، تجد (زيتونة)عطف بيان لـ (شجرة) ، و(صديد) عطف بيان لـ (ماء)عند النحاة . [٤٦] وعطف البيان هذا يُشبه النعْت. فـ (زيتونة) و (صديد) وجه من أوجه التشبيه فالشجرة كأنها زيتونة، والماء كأنه صديد. وعليه فالتشبيه وصفٌ في حقيقته ، وعطف البيان وصف في حقيقته ، وكون المشبه به جامداً منع من تسميته نعتاً وعَدل عنهُ إلى عطف البيان.

وقد يعرب عطف البيان هذا تابعاً على أنهُ بدل كلٍ من كل، فقد قال الشيخ خالد الأزهري(٩٠٥هـ):

" وَيصِحُ في عطف البيان إذا قُصِدَ بهِ ما يُقصد بالبدل أن يُعرب بدل كلٍّ من كل لما فيه من البيان " [٤٧] . ووَضّحَ الشيخ ياسين العُلَيمي في حاشيتهِ على شرح التصريح خطأ النحاة في التفريق بينهما [٤٨].

المبحث الثالث

التنوع في حركة المعطوف

عطف النسق ليس ببعيد عن التنوع في الإعراب والدلالة ، فهو عند النحاة تابعٌ متوسط بينه وبين متبوعهِ أحدُ حروف العطف المعروفة ، وجميع حروف العطف تُشرِك المعطوف مع المعطوف عليه في إعرابهِ وتُدخل الثاني في حكم الأول [٤٩] .

فالواو مثلاً تفيد الإشراك [٥٠] والتبعية في الإعراب لكن قد تتنوع التبعية في الإعراب ويتنوع المعنى تبعاً لتنوع المعطوف عليه .

أولاً : في قوله تعالى : ((وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ)) الرعد/٤.

قُرِئ (وجنّاتٍ) بالخفض في موضع النصب وهي قراءة الحسن،[٥١] قال الزجاج : "يجوز النصب في (جنّات) ، والمعنى :جعل فيها جنّاتٍ من أعنابٍ، ويجوز فيها الخفض عطفاً على (كلّ) في الآية التي سبقتها ... والرفع أجود والمعنى ؛ وفي الأرض قِطَعٌ متجاورات وبينهما جنّات " [٥٢].

وهذا يعني أن القِطَعَ في الأرض جميعها تصلح أن تكون جنات من أعناب ، لأن تقدير الزجاج يعني أنه تعالى جعل في القطع المتجاورات جنات . فهو تعالى جعل في الأرض كل الأرض جنات من أعناب وزرع ونخيل ، وهذا كلام في غاية الغرابة وهو مثار للإعجاز يدل على أن الأعناب والزرع والنخيل أصناف مختارة تصلح للزرع في عموم الأرض ؟ولو كان كذلك لقال تعالى : وفي الأرض جنات من أعناب وزرع ونخيل . ولما ذكر القطع ولا التجاور . وإن كان تقدير الزجاج بعيد لأنه يستوجب إسقاط حرف العطف .

أما تقدير النصب ؛ في الأرض قطع متجاوراتٌ جعل فيها جناتٍ، وجعل فيها زرعاً ، وجعل فيها نخيلاً ، فكل قطعة تنبت صنفا ، وهذا أقل غرابة فهو مما يدرك واقعا .

أو يكون تعالى أراد (مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وجعل فيها أنهارا

وجعل فيها زوجين وجعل فيها جنات من أعناب وجعل فيها زرعا وجعل فيها نخيلا) وهذا التوجيه يقصر الجنات على الأعناب ، ويبعد الجميع عن القطع ، فالقطع لا تنبت الأعناب ولا الزرع ولا النخيل . فماذا تنبت ؟ ولماذا لا تنبت ؟

أما خفضها عطفا على كل في الآية التي سبقتها (وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) الرعد/٣ .فالمعنى والله أعلم : ومن كل الثمرات وجناتٍ من أعنابٍ وزرعٍ ونخيلٍ جعل فيها زوجين اثنين صنوان وغير صنوان . فالكلام مع الخفض عن كون الأجناس المذكورة زوجين اثنين لكل منها ، وهذا باب في علم الوراثة والأجناس ينبغي أن لا يهمل .

أما الرفع فيها فهو أجود كما ذكر الفراء على تقدير(بينهما جنات) أي مبتدأ مؤخر . فيكون المراد والله أعلم ؛ بين قطعة وقطعة جنات أو جنة ، والكلام عندها عن جيلوجيا الأرض وطبيعتها ، فمنها قطعٌ لا تنبت ولا تصلح للزرع يجاورها جنات مزهرة مثمرة ، حكمة الله تعالى كيف وزع الأرزاق ونوع الآفاق .

هذه الأوجه نستخلصها من تنوع الإعراب في كلمة (جنات) أما إذا تتبعنا قراءات أخرى في موطن آخر من الآية نفسها فإننا أمام ما نقله الفراء (٢٠٧هـ) في الألفاظ : زرع و نخيل صنوان من قراءات قال : " الوجه فيها الرفع لجعلها تابعة للقِطَع "[٥٣]. أي : زَرْعٌ و نَخيلٌ صِنوانٌ ، و هي قراءة عاصم في رواية أبي بكر، ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي ، وقرأها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص كلها بالرفع .[٥٤] وفي الحجة في القراءات السبع لابن خالويه(٣٧٠هـ) : (وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ) يُقرأ ذلك كلهُ بالرفع والخفض . فالحجة لمن رفع : أنهُ ردّه على قوله : (وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ) . والحجة لمن خفض : أنه ردّهُ على قوله : (من أعنابٍ وزرعٍ)[٥٥]. ومثل هذا ذكره النحّاس وزاد قائلاً : " قال الأصمعي (ت) : قلت لأبي عمرو بن العلاء: كيف لا تقرأ (وزرعٍ) بالجر ، فقال : الجنات لا تكون من

الزرع . قلتُ : هذا الذي قاله أبو عمرو رحمه الله لا يُلزِم من قرأ بالجر ؛ لأن بعده ذَكَرَ النخيل وإذا اجتمع مع النخيل الزرع قيل لهما جنة " [٥٦].

وتبعية الزرع والنخيل على وجهها الذي هو الرفع يُخرجها من الدخول في الجَنّات، وفي القِطع المتجاورات، فالزرع والنخيل ليس من الجنات لأنهُ معطوف عليها وحكمهُ حكمها ومثلهُ مثلها ، وهو ليس جزءاً من القطع المتجاورات كذلك ،فالمعنى :وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجنّاتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغير صنوان، [٥٧] فيكون المراد والله تعالى أعلم : في الأرض قطعٌ متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرعٌ ، ونخيلٌ، فهي أربعة أصناف.

أما الخفض فيعني أن الجنات هي جناتُ أعنابٍ وزرعٍ ونخيلٍ صنوانٍ وغير صنوان،وعند هذا الاحتمال يكون الكلام عن صنفين لا غير، هما(القِطع المتجاورات) و(الجنّات).[٥٨]

ثانيا: ومثال تنوع التبعية في العطف أيضاً قوله تعالى : (والحبُّ ذو العَصفِ والرَّيحانُ) الرحمن/١٢

ذكر أبو زرعة : " أن قوله تعالى : (الريحانُ) بالرفع هو عطفٌ على (الحبّ)والحبُّ هو الحنطة والشعير كما قال السّديّ ، و (العصف) هو ورق الزرع وهو التبن ، كما قال الضَّحَّاك ، ويكون المعنى : فيها فاكهةٌ وفيها الحبُّ ذو العصف وفيها الريحانُ فيكون الريحانُ هنا الريحانُ الذي يُشَمُّ ، وقد يكون الريحان بمعنى الرزق ، فالعرب تقول : ذهبنا نطلب ريحان الله، أي رزق الله. [٥٩] قال الفراء(٢٠٧هـ) : " ومن رفع الرَّيحان جعله تابعاً لذو " [٦٠]. ويجوز أن يكون تابعاً للحَبّ [٦١] وعليه فالريحان إن رُفِعَ معطوفاً على(الحبُّ)كان المراد نعمتين لا واحدة وهما : الحبُّ والرَّيحانُ . وإن رُفِعَ معطوفاً على(ذو)كان من صفات الحبِّ فتكون نعمةً واحدة،تتصف بصفتين فالحبُّ ذو عصفٍ وهو أيضاً ذو ريحانٍ.

ويقرأ بالخفض أيضاً بالرّد على(العصفِ) . وقراءة الخفض هنا قد تكون على المجاورة وفيها حينئذ تبعيتان ؛ تبعية العطف على(العصف) وتبعية المجاورة. وهذهِ التبعية تقودنا إلى معنىً لطيف قلَّ أن يفطن إليه فاطن وهو أن الريحان تابع للعصف معطوف عليه لا على الحب.فهما صفتان إحداهما تكمل الأخرى ومجموعهما صفة للحب لا أنهما صفتان للحب،أي:أنَّ العصف فيه ريحان لا الحبّ فيه ريحان وهذا يخالف ما ذكره ابن خالويه(٣٧٠هـ) بقوله:(العصف هو التبن أما الريحان فهو ما فيه من الرزق وهو الحب)[٦٢].

وقريب مما أردنا ما ذهب إليه الحسن البصري في قوله تعالى:(فجعلهم كعصفٍ مأكول) الفيل /٥، قال : (أي كزرعٍ قد أُكِلَ حبهُ وبقي تبنهُ) [٦٣] ، والفرق بيِّنٌ بين تبن الحب وهو القشر وبين تبن النبت الذي هو قصبهُ وعيدانهُ ولعل في هذه الآية من الإعجاز ما تتقاصر عندهُ معلومات البشر الآن.

فالعصف هو ما تعصفهُ الريح ويتطاير مما دق وخف حملهُ وصار غباراً في الهواء تعصف بهِ الريح ومع أننا لا نجد في البذور قبل تقشيرها رائحة فإن قشرت ظهرت فيها روائح الله أعلم بأسرار وضعها.

الخاتمة ونتائج البحث

مما تقدم يصدق ما ذهب إليه القدامى ،من أنّ الحركة الإعرابية تعبير عن المعاني المكنونة في ضمير المتكلم ،وأنّ الجملة العربية تتغير دلاليا بتغير الحركة ، وأن الموقع الإعرابي والعامل الوظيفي ما هما إلا وصفان لما تدعو إليه هذه الحركة وتنبه عليه ، ويخلص البحث إلى الآتي :

- للحركة في النص القرآني أثرٌ واضح في تنويع الدلالة وتطويع النص اللفظي الواحد إلى أكثر من وجه يرقى به النص إلى مرحلة الإعجاز اللغوي .
- لتعدد الوجوه والقراءات فوائد جمَّة تستثمر في توجيه النص القرآني وتنويع معانيه.
- من الضرورة بمكان مراجعة النص القرآني في ضوء تنوع الأوجه والقراءات وإظهار أثر ذلك في تنويع التفسير القرآني ، استكمالا لما بدأنا.

وختاما أسأل الله تعالى العفو عن الزيغ والشطط ، وضعف التمييز والغلط .

الهوامش

[1] الإتقان:/١/١٩٩.

[2] ينظر شرح الأشموني :٣/٣٣٨.

[3] نظام الجملة العربية،سناء البياتي:١٣٩.

[4] الأطروحة للدكتور جمعة حسين محمد ، وهي أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل ، ١٩٩٣م .

[5] رسالة للأخ سهيل محمد علي ، وهي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية جامعة الأنبار ، ٢٠٠٧ م.

[6] التحرير والتنوير : ١/٥٤ .

[7] مناهل العرفان:١/١٣٠ .

[8] التحرير والتنوير :١٢/٩٦ .

[9] معاني القرآن ،الفراء:١/٣٤٧. وينظر : إعراب القرآن للنحاس:٣/١٧٢ ، مشكل إعراب القرآن ، مكي : ٢/٣٠٧، تحفة الأقران ، الرعيني: ٧٢ .

[10] التفسير الكبير :٢٨/٥٤ .

[11] تفسير ابن كثير:٤/١٥٦.

[12] صفوة التفاسير،الصابوني:٣/٢٠٨.

[13] جامع البيان:٢٥/٥٩.

[14] روح المعاني :١٣/٤٨.

[15] تفسير ابن كثير:٤/١٥٦.

[16] المقتضب: ٤/٣١٥ .

[17] الكتاب: ٢/٤٢١.

[18] الأصول: ٢/٢١.

[19] شرح المفصل: ٣/٤٧، شرح ابن عقيل٢/١٩٢.

[20] ينظر فلسفة المنصوبات في النحو العربي:٣٥٨-٣٦٢.

[21] السبعة:٥٩٢.

[22] الحجة في القراءات السبع:٣٢٤.

[23] ينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ،مكي ابن أبي طالب القيسي:٢/٣٥٩-٣٦٠.والبحر المحيط:٨/٣٤.

[24] معاني القرآن:٣/٣٩.

[25] الحجة في القراءات السبع/٣٢٤.

[26] إعراب القرآن للنحاس:٣/٥١، و الكشاف : ٣/٢٦٢،و التبيان،للعكبري :٢/١١٣١.

[27] معاني القرآن للفراء:٣/٢٥،وإعراب القرآن للنحاس:٣/١٠٨.

[28] ينظر : معاني القرآن وإعرابه :٤/٤٢٤.

[29] ينظر الكشف عن وجوه القراءات :٢/٢٦٤.

[30] ينظر شرح ابن عقيل٢/٢٤٧.
[31] ينظر الكتاب:١/٤٣٩، ٤٤١،المقتصد في شرح الإيضاح:٢/٩٢٩،شرح المفصل:٣/٦٣.
[32] المقتضب:٤/٢١١.
[33] الكشف عن وجوه القراءات السبع : ٢/٣٥٩ ٣٦٠ .
[34] الكتاب/سيبويه١/٤٢٢.
[35] ينظر إحياء النحو:إبراهيم مصطفى:١٢٥-١٢٦.
[36] ينظر الأشباه والنظائر٢/٩٣.
[37] المقتضب:٣/٢٨١.
[38] فتح القدير:٤/٤٤٦.
[39] معاني القرآن وإعرابه للزجاج:٤/٤٢٤.
[40] ينظر معاني القرآن للفراء :٣/٢٥ ، إعراب القرآن للنحاس :٣/١٠٨.
[41] ينظر الكشف عن وجوه القراءات ،مكي:٢/٢٦٤.
[42] ينظر معاني القرآن للفراء:٣/٢٥،إعراب القرآن للنحاس:٣/١٠٨.
[43] ينظر في النحو العربي قواعد وتطبيق:١/١٩٦.
[44] ينظر الكتاب:٢/١٨٤-١٨٥.
[45] ينظر الأصول:٢/٣١٩،شرح المفصل:٣/٧١،شرح التصريح:٢/١٣١ .
[46] ينظر شرح ابن عقيل:٢/٢١٩-٢٢٠،وشرح الأشموني:٢/٤١٤.
[47] شرح التصريح:٢/١٣٢.
[48] حاشية يس على التصريح :٢/١٣٢.
[49] ينظر :المقتضب:٤/٢١١، ٣٨٧،والأصول لابن السراج:٢/٥٥،ودلائل الإعجاز:١٧١،وشرح ابن عقيل:٢/٢٢٤-٢٢٥،وشرح المفصل:٣/٧٤، ٨/٩٧،وشرح التصريح:٢/١٣٤.
[50] الأصول: ٢/٥٥،شرح المفصل:٣/٧٤.
[51] ينظر مختصر في شواذ القراءات، ابن خالويه: ٦٦.
[52] معاني القرآن وإعرابه :٣/١٣٧ـــ ١٣٨.
[53] معاني القرآن:١/٣٤٧.
[54] ينظر السبعة :٣٥٦، الكشف : ٢/ ١٩ .
[55] الحجة في القراءات السبع:١٩٩-٢٠٠.
[56] إعراب القرآن : ٢/ ١٦٤ .
[57] ينظر : معاني القرآن وإعرابه : ٣/ ١٣٨، الحجة لابن خالويه : ٢٠٠ ، التبيان: ٢/ ٧٥٠.
[58] ينظر : إعراب القرآن للنحاس : ٢/١٦٤.
[59] حجة القراءات ، أبو زرعة : ٦٩٠ـــ ٦٩١.
[60] معاني القرآن:٣/١١٣.
[61] الحجة في القراءات السبع:٣٣٨.
[62] نفسه:٣٣٨.
[63] مختار الصحاح(عصف).

مصادر البحث ومراجعه

١. الإتقان في علوم القرآن،السيوطي،المكتبة الثقافية،بيروت،١٩٧٣ ،أوفسيت.

٢. أثر الاحتمالات الإعرابية في توجيه المعنى ، دراسة في كتب إعراب القرآن أطروحة دكتوراه ، جمعة حسين محمد ، مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل ، ١٩٩٣م .

٣. اختلاف القراءات القرآنية وأثره في تنوع المعنى، سهيل محمد علي ،وهي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية جامعة الأنبار ، ٢٠٠٧ م.

٤. إحياء النحو،إبراهيم مصطفى،القاهرة،١٩٥٩م .

٥. ألأشباه والنظائر في النحو،السيوطي،ط/٢ ،حيدر آباد،١٣٥٩ هـ .

٦. الأصول في النحو،ابو بكر بن السراج، تحـ د. عبد الحسين الفتلي، مط النعمان ، النجف ،١٩٧٣ .

٧. إعراب القرآن ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت٣٣٨هـ) تحـ زهير غازي زاهد ،ط٢،عالم الكتب ،مكتبة النهضة العربية،١٩٨٥ م.

٨. البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت، طـ٢، ٢٠٠٧م.

٩. التبيان في إعراب القرآن ، أبو البقاء العكبري تصحيح وتحـ الأستاذ إبراهيم عطوة عوض ط ١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦١م.

١٠. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٢هـ)مؤسسة التأريخ ، بيروت،طـ١، ٢٠٠١م.

١١. تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، (ت٧٧٤ هـ) دار القلم ،طـ٢.د ت

١٢. جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف تفسير الطبري،أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (ت٣١١هـ) دار إحياء التراث العربي،ط١.دت

١٣. حاشية يس على شرح التصريح ، يس العُلَيمي، مط الاستقامة ،القاهرة ، ط/١ ،١٩٥٤ .

١٤. الحجة في القراءات السبع الحسن بن أحمد بن خالويه ٣٧٠هـ تحـ وشرح عبد العال سالم مكرم ط ٢ دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة بيروت ١٩٧٧ م.

١٥. حجة القراءات ، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة ت سعيد الأفغاني ط ٥ مؤسسة الرسالة بيروت ٢٠٠١ م.

١٦. دلائل الإعجاز، الجرجاني ،دار المعرفة ،بيروت،١٩٨١م ، أوفسيت

١٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (١٢٧٠هـ)،دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت–١٩٨٧م.

١٨. السبعة في القراءات، أبو بكر احمد بن موسى المعروف بابن مجاهد(ت٣٢٤هـ) تحـ د شوقي ضيف ط ٢ دار المعارف مصر ١٩٨٠م.

١٩. شرح ابن عقيل ، تحـ محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر، بيروت ، ط ١٥، ١٩٧٢ م.

٢٠. شرح الأشموني ، تحـ محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي ،بيروت ، ط /١ ،١٩٥٥م ،أوفسيت .

٢١. شرح التصريح على التوضيح ، الشيخ خالد الأزهري ، مط الاستقامة ،القاهرة ، ط/١ ،١٩٥٤ م.

٢٢. شرح المفصل ، ابن يعيش ، نشر إدارة الطباعة المنيرية ، مصر .

٢٣. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ،دار القرآن الكريم،بيروت،ط٦، ١٩٨٥ م.

٢٤. فتح القدير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) دار الكلم الطيب ، دمشق ،ط٢، ١٩٩٨ م.

٢٥. فلسفة المنصوبات في النحو العربي ، عائد كريم علوان الحريزي ،رسالة دكتوراه مطبوعة بالآلة الكاتبة ،جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م.

٢٦. في النحو العربي ، قواعد وتطبيق ، د مهدي المخزومي ،مط مصطفى البابي الحلبي وأولاده ،مصر ، ط/١ ،١٩٦٦م .

٢٧. الكتاب ، سيبويه ، تح عبد السلام هارون ، عالم الكتب بيروت .

٢٨. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم ، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ط٢ ،مطبعة الاستقامة،دار الطباعة المصرية،١٣٨١ هـ .

٢٩. الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها ، مكي بن أبي طالب ، تحـ د. محي الدين رمضان ،نشر مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٤م

٣٠. مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي، (ت٦٦٦هـ)بيروت، ١٩٧٩م.

٣١. مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه، عني بنشره: ج.براجستراسر، دار الهجرة ، القاهرة،١٩٣٤م.

٣٢. معاني القرآن ، الفرّاء ، تح احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، مصورة عن طبعة عالم الكتب بيروت ، ط /٢ ، ١٩٨٠

٣٣. معاني القرآن وإعرابه،أبو إسحاق ، إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج (ت٣١١هـ)، تحـ: د. عبد الجليل عبدة شلبي ، عالم الكتب ، ط١ ، بيروت، ١٩٨٨م .

٣٤. مفاتح الغيب (التفسير الكبير) فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)المطبعة البهية، مصر، ط١، ١٩٣٨ م.

٣٥. المقتصد في شرح الإيضاح ، عبد القاهر الجرجاني ، تح د . كاظم بحر المرجان ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨٢ م.

٣٦. المقتضب ، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥ هـ) تح محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب بيروت ، أوفسيت .

٣٧. مناهل العرفان،محمد عبد العظيم الزرقاني(١٣٦٧هج)،دار الفكر ،بيروت،ط١، ١٩٦٦ .

٣٨. نظام الجملة العربية ، سناء حميد البياتي ، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ١٩٨٣ .